

المفاوضة خطابا تفاعليا في رحلة الغساني الأندلسي

أ. عادل الغزال

(تونس)

يصدر اختيارنا لهذه المقاربة من سعينا الدؤوب إلى دراسة الظاهرة الأدبية في عدة مجالاتها وضروب أجناسها وفق ما اختبرناه من جهاز نظرية الألعاب^(١) أو ما انتقينا من مناهج تحليل الخطاب^(٢)، وهما وسيطان وجهتنا إليهما أبحاثنا الأخيرة، طلبا لكل ما قد يحول الكثير من أوجه نظرنا إلى الظاهرة الأدبية، ويبدل فيها ما بدا متداولاً أنضاه الاستعمال، أو مكررا أفرغته النمطية من جدة المعنى. ومع ذلك فإن الذي وجهنا إلى اختيار هذه المقاربة، إنما هي هذه اللحظة الفارقة التي غدت الدراسات الأدبية تعيشها الآن، مطلة على مقولة التكامل بين العلوم اللسانية ومقتضياتها التداولية، وبين العلوم السياسية وجارتها العلاقات الدولية، دون إغفال حظ المباحث الأنثروبولوجية من التسرب إلى حقول الأدب وظواهر الاتصال.

(١) La théorie des jeux:

(٢) Analyse du discours

- المفاوضة خطابا تفاعليا في رحلة الغساني الأندلسي - دراسات أندلسية -

إن تناولنا للمفاوضة^(١) واقع في سياق النظر إلى مفاهيم التواصل والتفاعل في الأدب، وما تحفل به هذه المفاهيم من منوالات لعبية، وخطط قولية، وإستراتيجيات خطابية، همها في كل ذلك رصد المعلنات، ونبش الخوافي بين مجالى الأدب والسياسة، ومن ثمة إعلان الوشائج الممكنة بينهما، ألا تكون السياسة في بعض الاعتبارات أدبا لا هوية أجناسية له، مثلما أن الأدب هو في باطنه سياسة للكلام وتدبير باللغة للمعاني؟

لقد اخترنا لهذه المقاربة نصا أندلسيا لمحمد الغساني^(٢)، وزير السلطان إسماعيل العلوي المغربي (توفي ١١٤٠ / ١٧٢٧ للميلاد) ومنتنه رحلة سفارية يلخصها العنوان: رحلة الوزير في افتكاك الأسير^(٣) الواقعة بين سنة ١١٠٢ / ١٩ أكتوبر ١٦٩٠ و ١١٠٣ / ٢٠ أكتوبر ١٦٩١، فهي محور عملنا الموسوم بالمفاوضة خطابا تفاعليا وقصدنا فيه تناول أمرين:

أولاً: موضع المفاوضة من الخطاب التفاعلي.

ثانياً: إستراتيجيات المفاوضة في رحلة الغساني.

(١) Négociation

(٢) أبو عبد الله محمد الغساني: توفي عام ١١١٩ / ١٧١٠، وهو من أسرة أصلها من الأندلس، ولكنها استقرت بمراكش. كان يعمل كاتباً ببلاط العلويين بمكناس في عهد السلطان إسماعيل. عرف بخبرته في أسماء الكتب، وهو إلى ذلك خطاط وناثر فني. وقد ارتقى بعد ذلك إلى رتبة وزير. ثم أرسله السلطان إسماعيل إلى كارلوس الثاني، في رحلة هدفها استرجاع خمسة آلاف مخطوط وخمسمائة أسير.

(٣) محمد الغساني، رحلة الوزير في افتكاك الأسير، حررها وقدم لها: نوري الجراح، طبعة ١، أبو ظبي، بيروت، دار السويدي للنشر والتوزيع، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، ٢٠٠٢.

- المفاوضة خطاباً تفاعلياً في رحلة الغساني الأندلسي - دراسات أندلسية -

أولاً: موضع المفاوضة من الخطاب التفاعلي:

يحتل مفهوم المفاوضة منزلة جلييلة في إطار ما يسمى الخطاب التفاعلي، وهو خطاب ينشد النظر في مسائل التواصل، ويهدف إلى توسيع دوائر اشتغالها ضمن أفراد المجتمع الواحد، أو بين مكونات المجتمع الدولي، فالتفاوض من هذا الوجه هو شكل تواصل يغذيه وضعيات النزاع أو شروط التأسيس لحدث تعاوني تشاركي. وعلى هذا النحو انصرفت بعض الدوائر البحثية والمؤسسات الجامعية العريقة إلى إيلاء المفاوضة مكانة لافتة في لوائح مشاريعها التعليمية والتكوينية، نموذج ذلك مشروع جامعة هارفارد للتفاوض في الولايات المتحدة الأمريكية^(١) وأبحاث روجر فيشر ووليام أري^(٢).

وتؤكد قيمة المفاوضة في الخطاب التفاعلي تأكيداً أعمق متى التفتنا إلى معاجم اللسان، عتيقها وحديثها. فالمفاوضة عند ابن منظور هي "المساواة والمشاركة، وهي مفاعلة من التفويض"^(٣).

وفي معجم Petit Robert التفاوض هو "جملة من العمليات نقوم بها لنصل إلى اتفاق أو لنهني عملية ... بل هو طريقة عقلانية في فض النزاعات تقتضي كثيراً من المشاركين المفاوضين، كما تقتضي أمراً عليه يدور التفاوض حتى نعتق من منطق النزاع والصراع، إلى منطق التبادل والتفاوض"^(٤).

(١) حسن محمد وجيه، "مقدمة في علم التفاوض الاجتماعي والسياسي"، سلسلة عالم المعرفة، (الكويت) العدد ١٩٠، أكتوبر، ١٩٩٤.
(٢) روجر فيشر (Roger fisher) ووليام أري (William, L, Ury)، هما من أشهر أعضاء مشروع جامعة هارفارد للتفاوض، وهو مشروع تأسس في النصف الثاني من القرن العشرين على يد بعض أساتذة الجامعة، وبعض المتعاونين معهم من المعاهد العليا للدراسات السياسية، ويهدف هذا المشروع إلى تنمية طرق التفاوض ووسائل الوساطة لمعالجة مشاكل المجتمع الأمريكي وما يطرأ على المفاوضات السياسية الدولية. وأهم أصداء هذا المشروع كانت حاضرة في اتفاقيات كامب ديفيد نهاية السبعينات من القرن العشرين
نقلاً عن موقع: www.pon.harvard.edu.

(٣) ابن منظور، لسان العرب، مادة (ف . و . ض).

(٤) راجع معجم Petit Robert , ED Le Rober 1991 .

- المفاوضة خطابا تفاعليا في رحلة الغساني الأندلسي - دراسات أندلسية -

أما إذا التفتنا إلى بعض معاجم الاختصاص على نحو معجم تحليل الخطاب^(١) فإن الحدث التفاوضي يغدو على نحو من التلازم، تفاعلا فالمفاوضة في هذا المرجع إنما هي مفهوم مركزي في تحليل التحدّيات، والتفاوض هو "طريقة، بل نمط مخصوص من التفاعل لأن الأحداث التفاوضية هي إحداث مساوقة لامتدادات الحدث التواصلي"^(٢)، وهي تفاعلات من طبيعة مؤسساتية تنزع منزع إقامة عدد من الاتفاقات بين المشاركين حول قواعد "اللعبة اللغوية" أو "اللعبة السياسية" أو غيرها من ضروب الألعاب.

تكشف نظرية الألعاب البعد التفاعلي في المفاوضة فترتقي باستراتيجيات التفاوض إلى مرتبة المنوال اللعبي، وتنحت مفهوم التوازن التفاعلي تمثيلا لصورتين، صورة وضعيتي لعب مختلفتين، وما بينهما من روابط منطقية، وصورة طرفي تفاوض متباينين، وما يصلهما من بني وصلات متشابكة^(٣).

إن احتفاء نظرية الألعاب بمفهوم المفاوضة يتجلى في تلك الأصناف الدقيقة التي تكتنفه، فالأحداث التفاوضية في الغالب صنفان: صنف يوسم بالمباراة الصفرية اللاتفاوضية وصيغتها "لا بد أن أجعل الطرف الآخر يخسر كل شيء، وأن أكسب كل شيء"^(٤). وفي هذا المقام يستحيل التفاوض لعبة غير تفاعلية، تستهدف أوضاع صراع يبحث فيها اللاعبون إنشاء توازن انطلاقا من قوتهم الخاصة والمتبادلة، وصنف يوسم بالمباراة التفاوضية، وقاعدته "بناء صيغة يكسب منها الجميع على نحو واقعي"^(٥)، وعندها ينزل

(١) باتريك شارودو، دومنيك منغنيو، معجم تحليل الخطاب، ترجمة: عبد القادر المهيري، حمادي صمود، مراجعة: صلاح الدين الشريف، طبعة ١، تونس، دار سيناترا، المركز الوطني للترجمة، ٢٠٠٨.

(٢) باتريك شارودو، دومنيك منغنيو، معجم تحليل الخطاب، ص ٣٨٧.

(٣) حسن محمد وجيه، "مقدمة في علم التفاوض الاجتماعي والسياسي" ص ١٣، ١٤.

(٤) ن.م، ص ١٥.

(٥) ن.م، ص ١٦.

- المفاوضة خطابا تفاعليا في رحلة الغساني الأندلسي - دراسات أندلسية -

التفاوض منزلة اللعبة التفاعلية تلك التي تسعى إلى تسوية تنهض على قسمة عادلة للأرباح بين مختلف اللاعبين^(١). فكل إنتاج يفضي إلى نشاط اقتصادي أو قيم تبادلية وجب أن يكون مقسما بين متدخلين مختلفين، وكل طرف مفاوض متدخل يرنو إلى بناء إستراتيجية غايتها مضاعفة النصيب، في نسقيه لعبية تؤصل المفاوضة في أرض اللعب، وسننه، ووسائله ومنظوماته.

ثانيا: استراتيجيات المفاوضة في رحلة الغساني:

إن رحلة الوزير في افتتاح الأسير هي أشبه باليوميات، صاغها وزير مغربي هو محمد الغساني الذي كان أول أمره كاتباً يسجل أوامر السلطان بخط ذاع بين الناس، لأنه جمع إلى سرعة التحرير، أناقة التحرير، فارتقى بصاحبه إلى مرتبة الوزير، ثم أوفده هذا السلطان إسماعيل العلوي (١٠٨٣ / ١٦٧٢ - ١١٤٠ / ١٧٢٧) في مهمة دبلوماسية لدى البلاط الإسباني، تدور على مطلبين، هما مركزا الرحلة وعنوانا المفاوضة، مطلب إطلاق خمسمائة أسير مسلم زمن احتداد الحروب المتواصلة بين المغاربة والأسبان، ودوام أشكال الاضطهاد للأندلسيين المنتصرين الذين أرغموا على اعتناق المسيحية، وهي مظاهر دامت أكثر من قرن ونصف القرن بعد سقوط غرناطة آخر معاقل المسلمين في بلاد الأندلس، ولعل آخر الوقائع المحفزة لهذا السلطان على إعادة الأسرى واقعة العرائش (١١٠١ / ١٦٨٩) لما فيها من عدد هائل لحقه الأسر. ومع هذا المطلب الإنساني السياسي الذي إليه أفضى سلطان السيف، ثمة مطلب ثقافي تفاوضي آخر من جنس سلطان القلم مداره على تحرير مكتبة هائلة من المخطوطات العربية تقدر بخمسة آلاف كتاب، والعودة بها إلى أرض المغرب الإسلامي، وهذه المكتبة كما شاع أمرها عند المؤرخين هي جزء من مخطوطات السلطان المراكشي زيدان (توفي ١٠٣٧ / ١٦٢٧) التي افتكت في

(١) ن.م، ص ٣٣.

- المفاوضة خطابا تفاعليا في رحلة الغساني الأندلسي - دراسات أندلسية -

البحر بعد هجوم القراصنة على سفينته، وتحول هذا التراث إلى مكتبة الأسكوريال^(١) ذائعة الصيت في إسبانيا، لذلك يقول الغساني منذ ديباجة الكتاب "وجهني أدام الله علاه لبلاد الروم لآتيه بمن هناك من أسرى الإسلام وأبحث في الخزائن الإسبانية عما أبقاه المسلمون هنالك من كتب الأحكام"^(٢). وضمن هذا السياق الذي ولدت فيه الرحلة، اختار كاتبها الغساني أن تكون خطابا سرديا وصفيا ثلاثي البنية، مدخله يعرض لجغرافيا مرسى جبل طارق، وكيفية وصول المسلمين إليه في لحظة سرد ارتدادية أولى، أما متنه، فجوهره قص لوقائع الرحلة عبر لازمة مهيمنة هي فعل السفر من مدينة إلى أخرى ومنطق الحركة بين رهانات التفاوض وخططه، حتى تتوقف الأحداث في انتظامها بتوقف صوت ساردها وسكون تدوينه للوقائع وهو في طليطلة الإسبانية، ثم يكون مخرجها ومنتهاها في النص، قصا على سبيل اللواحق فيه ارتداد ثان إلى تاريخ فتح الأندلس، وفي كل ذلك تستوي الرحلة وكأنها حين من الزمن بين نقطتي ارتداد واسترجاع جوهرها إخبار أن كتابة الراهن، راهن الانكسار، لا تحصل منها الجدوى حتى تكون واقعة بين أطلال الماضي وأزمة الفتح والانتشار.

إن خطاب الرحلة، بما هو عملية تلفيز لفعل الرحلة^(٣) قد شدنا دون زمن خطابه، إلى كفيات انعقاد التلفظ فيه، ونحوه على استراتيجيات سرد وقول لافتة، بما تعنيه الاستراتيجيات من شروط تحددها، ورهانات تفصلها، وخطط تبني عليها، وبما تنفتح عليه من ألوان تفاوضية شتى عقدنا العزم على دراستها والخوض فيها. إننا لا نعني بالإستراتيجية معناها التداولي القديم فحسب وهو "فن قيادة عمليات

(١) مكتبة الأسكوريال: هي مكتبة ضخمة تعرف بالعدد الوافر من المخطوطات العربية فيها، وقد بنيت في القرن ١٠ / ١٦.

(٢) محمد الغساني، رحلة الوزير في افتكاك الأسير، ص ٢٦.

(٣) سعيد يقطين، "خطاب الرحلة العربي ومكوناته البنيوية" مجلة علامات في النقد، (جدة)، المجلد ٣، الجزء ٩، سبتمبر ١٩٩٣.

- المفاوضة خطابا تفاعليا في رحلة الغساني الأندلسي - دراسات أندلسية -

جيش في ميادين القتال"^(١)، وإنما نعني بها تلك الدلالة التي اكتسبها المفهوم على نحو أعم، يفيد "كل عمل يتم النهوض به بصفة منسقة، لبلوغ أهداف مخصوصة"^(٢)، وحتى تكتمل مقارنتنا للمفهوم، فإننا قد أخذنا من نظرية الألعاب تصورات القائلة بأن الإستراتيجية: هي جملة قواعد محددة لسلوك اللاعب المفاوض، في كل وضعية لعب ممكنة، مثلما استعرنا من تحديدات تحليل الخطاب اعتباراته القائلة بأن الإستراتيجية، هي من شروط إنتاج الخطاب^(٣) بل هي ذاك الفضاء الذي يطابق الاختيارات الممكنة التي يتوخاها المتكلمون، ليقوموا بإخراج عمل اللغة، لأن الذات حسب شارودو^(٤) تحمل على اختيار عدد من العمليات اللغوية في إطار إكراهات، سواء كانت قواعد أو معايير أو مواضع، وجماعها يتطور حول ثلاثة رهانات تمايز بطبيعة غاياتها، رهان تحقيق المشروع، ورهان المصادقية، ورهان الاستهواء^(٥). وفي خضم هذا السيل من التحديات نلزم أنفسنا بالنظر إلى استراتيجيات المفاوضة في رحلة الغساني، من جهة رهاناتها، ومن جهة خططها.

أ- الرهانات: تتجلى رهانات الرحلة مفاوضة، عبر الأنماط التالية:

أ- رهان تحقيق المشروع^(٦): توجه الغساني في رحلته إلى الطرف الإسباني انطلاقا من تحديد موقع ذاته المفاوضة واعتبارها حالة قانونية تكتسب مشروعيتها في التفاعل مع الآخر، وفق مسار شرعي

(١) باتريك شارودو، دومينيك منغنيو، معجم تحليل الخطاب، ص ٥٣٢.

(٢) ن.م، ص ٥٣٢.

(٣) باتريك شارودو، دومينيك منغنيو، معجم تحليل الخطاب، ص ٥٣٣.

(٤) ن.م، ص ٥٣٣.

(٥) المشروع: *Légitimation* المصادقية: *Crédibilité* الاستهواء: *Captation*

(٦) رهان تحقيق المشروع: وهو يرمي إلى تحديد موقع سلطة الفرد (راجع: معجم تحليل الخطاب).

- المفاوضة خطابا تفاعليا في رحلة الغساني الأندلسي - دراسات أندلسية -

يتدخل فيه نمطان من البناء "وجهني أدام الله علاه لبلاد الروم ... فتوجهت مستعينا بالله تعالى إلى هاتك الأقطار بإذنه الشريف وأمره"^(١).

أما البناء الأول ففيه تحديد لتلك السلطة المؤسساتية التي فوضت الغساني متكلمها له الحق في الكلام باسم الجماعة، لأن ذاته المفاوضة قد انتسبت سابقا إلى كتبة السلطان وأعوان قلمه، وانتسبت حين الرحلة إلى وزرائه، فجمعت المعرفة والقرار، وكانت بحق صوت الجماعة، وفي البناء الثاني للمشروعية ارتقت تلك الذات المفاوضة مراتب الإقناع باعتبارها شخصية لا شخصا لها تمام القدرة على الإتيان بالأمر الواقع. يقول محمد الغساني: "ثم دخل بنا الحاكم المذكور المدينة (حاكم مدينة قالص أو قادس)... فقلنا له لا يمكننا المقام بوضع من المواضع ما لم نصل البلاد التي نحن قاصدون إليها، والطاغية الذي توجهنا إليه، فقال: "إن ذلك هو مراد سيدنا وعظيمنا وهو مستبشر بقدمكم"^(٢).

فعبّر هذا المشاهد يغدو الغساني مفاوضا نتوسع مشروعيته على نحو كبير فيفاوض حكام إسبانيا في التعجيل بتحقيق الوصول إلى ملكهم، وكأنما تتحول ذواتهم إلى أسرى ضمنيين في لحظة ظاهرها تفاعلي بروتوكولي، وباطنها نشر لمشروعية ذات الغساني حتى تكتمل أول لحظات المفاوضة / اللعبة ويكون المتكلم ندا، لمخاطب وحيد هو كارلوس الثاني (توفي ١١١٢ / ١٧٠٠). والذي تبلغ فيه لحظة إسباغ المشروعية ذروتها باعتبارها رهانا من رهانات استراتيجيا المفاوضة، قول يمضي فيه الرحالة المفاوض قائلا: "لقد ورد علينا عندما رحلنا من مدينة مدريد بقرية طري كوان أبان رجل من قرية تسمى قوصرا... فرحب وسلم... وكان هذا الرجل المذكور مما يعد من لصوص هذا الجبل وله قوة وشجاعة... ولقد أظهر

(١) محمد الغساني، رحلة الوزير في افتكاك الأسير، ص ٢٦.

(٢) محمد الغساني، رحلة الوزير في افتكاك الأسير، ص ٣٦.

- المفاوضة خطابا تفاعليا في رحلة الغساني الأندلسي - دراسات أندلسية -

اليوم رجوعا عن ذلك وقال لي: لو كنت متأهبا للسفر لقدمت معك إلى مولاي إسماعيل أطلب منه كتابا أحترم به إلى سلطان إسبانيا، ليكتب لي أمانا تطمئن به نفسي، وإن قدم من هذه البلاد بعد هذا أحد فلإني أصاحبه وأقدم معه"^(١).

إن ما يسرد في هذا المقام على نحو السوابق القصصية من قصة الرجل الراغب في تحصيل الأمان بعد قضاء ربح من الزمن في اللصوصية، وإن احتضن فيه المرجعي المتخيل وشارف فيه القصص تخوم الإنشاء، إنما يوجه إلى إغراق رهان المشروعية بحالة تفويضية مطلقة يتسنى فيها الرحالة المفاوض أعلى مراتب السلطة ودرجات القرار، فمكتسبات تفاعل ذاته مع المركز، ونعني به بعض حكام مقاطعات إسبانيا، أهله للدخول في محاوره الهامش ومؤسساته حتى يمنحه قدرا آخر من المشروعية، فالغساني عند محاورته اللصوصية قد نزع عنها إهاب العنف، وحول اللص إلى ذات تراجع وجهها السلوكي، فتأبى الإقامة في أسر حاضرها القيمي وترى الأمان والسلام في صك السلطان المغربي وعقيدته. كيف لا، والواسطة هي ذات الغساني المفاوض لأنه في اعتبار النص قد جعل مشروعيته مطلقة، وتفاعله مع الذات الأخرى شكلا آخر من أشكال افتكاك الأسرى.

ليس رهان تحقيق المشروعية مجرد مرحلة أولى من مراحل تحقق استراتيجيات المفاوض بقدر ما هي لحظة تجانس الاختبار الترشيعي بلغة السيميائية السردية، وهي لحظة محتاجة إلى رهان أدق يرقى إلى مرتبة الاختبار الرئيسي الذي به تكتسب ذات المفاوض القدرة التامة على القول والفعل.

ب- رهان المصادقية^(١): ونعني به كل الأعمال القولية والسلوكية التي ترمي إلى تحديد موقع

الفرد / اللاعب / المفاوض من مقولة الصدق وترسيخ خاصية الحقيقة فيه، وفي وضعيته ضمن لعبة

(١) ن.م، ص ٦٠.

- المفاوضة خطابا تفاعليا في رحلة الغساني الأندلسي - دراسات أندلسية -

التفاوض واستراتيجياته الصغرى. وقد سعى الرحالة الغساني إلى إخراج مقاطع من خطابه على نحو يؤهله للظفر بالمصداقية تحلي حقيقة مدارها على أن هذا المفاوض قد خطط عملية بناء المصداقية مروراً بأطوار ومواقع مختلفة:

- **موقع الالتزام:** وفي هذا المقام أعلن المفاوض أن مصداقيته لدى الأسرى مكتسبة من خطة السلطان المغربي، واستراتيجياته الحربية وليس هو غير واسطة تنفيذ تتحرك في حقل من المصداقية رحب. يقول الغساني: "ولقينا من بمدينة قالص من الأسرى رجالاً ونساء وصبياناً... فذكرناهم ووعدناهم بالخير من أن سيدنا نصره الله غير تاركهم... لاسيما وقد تقرر لديهم أن سيدنا نصره الله لم يكن له قصد ولا نية من جمعه لسائر النصارى في ربة الأسر إلا لأجل فكك المسلمين من يد العدو الكافر دمره الله"^(٢). ويلوذ هذا المفاوض في رهان المصداقية بطائفة أخرى من استراتيجيات التفاوض والتفاعل التي تستند إلى موضع الالتزام، غير أن قيمة هذه المظاهر تتجاوز السياسي لتنهل من معين الشرعي الديني، إذ يحدثنا الغساني في نص رحلته قائلاً: "والمدينة مانسنارس، بنفسها لا سور لها فدخلنا دار الكليريك"^(٣) المذكور ففرح بنا فرحاً شديداً وأرانا جميع ما عنده من الصور وما في معناها، إذ كان معجباً بها وكثيراً ما تضرع ورغب في أن نساعفه في شرب شيء من الخمر أظن في شكره، وزعم أنه قديم عنده وله سنين عديدة فقلنا له: لا يحل ذلك في ديننا ولا يسوغ في ملتنا، فجعل يشفق من شربنا الماء البارد صرفاً"^(٤).

(١) رهان المصداقية، وهو يرمي إلى تحديد موقع الفرد من الصدق، راجع: معجم تحليل الخطاب، ص ١٥١، ١٥٢.

(٢) محمد الغساني، رحلة الوزير في افتكاك الأسير، ص ٣٦.

(٣) الكليريك: هو رجل الدين أو الكاهن (Clergé).

(٤) محمد الغساني، رحلة الوزير في افتكاك الأسير، ص ٦٤.

- المفاوضة خطابا تفاعليا في رحلة الغساني الأندلسي - دراسات أندلسية -

وعلى هذا النحو تتلون المصداقية لديه بلون روحي يبدي من الاتساق ما يجعل المفاوض غير متناقض مع عوالمه المرجعية ونصوصه الثقافية، فتزداد الأقوال نسقيه والأعمال وجاهة، تجذر هذه الذات في موقع من الصدق رفيع، فلا يكفي أن يتحول المفاوض إلى فضاء الآخر حتى ينسجم مع طقوسه كل الانسجام، ويضيع في أعرافه وسنن احتفالاته، بل المفاوض على وعي بأن أي استرخاء تفاوضي سيفضي إلى انسحاب وتنازل ووهن في التفاعل.

- موقع التباعد: وهو مدار آخر من مدارات إعلان المصداقية. إذ الرحالة مفاوض دون أهواء وإن كانت رحلته في أغلب مقاطعها موصولة بملفوظات تفضح فيه كثافة الأهواء، وفداحة التعبير عن الآخر بمنطق الثأر الصادر عن إرث يرى ذلك الفضاء الحضاري "جرحا أندلسيا"^(١). يقول الغساني: "وحين قربنا من مدينة قرطبة برز أهلها للملاقة وبرز من بها من الأسرى وهم يعلنون بلفظ الشهادة ويدعون بالنصر لسيدنا المنصور بالله تعالى، وصبيان النصاري يقولون مثل ما يقول الأسرى... ولما دخلنا رأيناها مدينة كبيرة عامرة مشحونة بأنواع الحرف والصنائع وأكثر باعته نساء. فنزلنا دار حاكمها"^(٢).

إن الصداقية في هذا المقطع لا تعدو أن تكون صادرة عن مفاوض يقوده سلوك المختص الخبير الذي يصف العوالم في غير تحريف ليرسخ مسافة نقدية بين الملفوظ وضمنياته، وعندها تتحول لغة المفاوض إلى لغة لا باعتبارها مجرد وحدات منفصلة أو تعبيرات أو مفردات، بل باعتبارها تفاعلات سياسية، فما يقوله صبيان النصاري على سبيل المحاكاة والسخرية والتقليد للأسرى، لا يمنع هذا الصوت من ذكره في غير أهواء، والاعتراف بوجوده واعتباره صادرا من آخر مختلف، بل ودخول فضاء السلطة

(١) الجرح الأندلسي: هي استعارة شاعت في الأدبيات العربية على نحو ما جاء في شعر نزار قباني، وخاصة في قصيدة غرناطة راجع: نزار

قباني، الرسم بالكلمات، الأعمال الشعرية الكاملة، طبعة ١، بيروت، منشورات نزار قباني، ١٩٨٣. ص ٥٦٦، ٥٦٨.

(٢) محمد الغساني، رحلة الوزير في افتكاك الأسير، ص ٤٥.

- المفاوضة خطاباً تفاعلياً في رحلة الغساني الأندلسي - دراسات أندلسية -

الحامية له والراعية لسلوكه. تتحقق بذلك صور من التفاعل تحول المفاوضة لعبة متوازنة لا يهددها إلا ما قد تفضي إليه إستراتيجية الرحالة في رهانات الاستهواء.

ج- رهان الاستهواء^(١): إذا كان الرهانون السابقان، رهان تحقيق المشروعية ورهان المصادقية، صادرين عن ذات الرحالة المفاوض، فإن رهان الاستهواء كان في صدوره من الذات الإسبانية أوضح وأجلى. ونعني برهان الاستهواء كل عمل قولي أو إجراء سلوكي أو مظهر احتفالي يبيده المفاوض لإغراء الطرف الآخر، وإقناعه حتى يلج مواضيع تفكير، ومرتكزاته التي يراها في التفاعل والتواصل. وفي هذا السياق من استراتيجيات المفاوضة في رحلة الغساني نتبين شبكة من المواقف النابعة من البلاط الإسباني ودوائره تنهض بأدوار تفاعلية على نحو مخصوص في وظائفه.

أولاًها: موقف التقليد والمحاكاة، وفيه يلتزم المفاوض بالجوهر في أنحاء سلوك الطرف الآخر، ومجاراته وتبين انفعالاته وبعض قيمه. يقول الغساني: "وكان دخولنا لمديرد عشية يوم السبت السابع من شهر ربيع النبوي عام ١١٠٢ للهجرة، وفي مدة اثني عشر يوماً كان يرد علينا من قبل الطاغية، الكندي الموكل بنا، وقيم الدار واعيان آخرون صباحاً ومساءً نائبين عن عظيمهم في السلام... وحين كملت اثنا عشر يوماً قدم علينا الموكل بنا يعلمنا بتهيؤ عظيمه للملاقاة وبدأ يستفهمنا عن حال سلامنا لنخبره به قبل دخولنا عليه... لكونه لم يتقدم له قبل ملاقاته مع أحد من أهل ملتنا، فأخبرناه بسلامنا من بعضنا على بعض، وسلامنا على غير أهل ديننا. وإنه قول "السلام على من اتبع الهدى" من غير زيادة عليها... ولم يمكنه إلا قبوله حيث عرف تصميمنا على ذلك"^(٢).

(١) رهان الاستهواء، ويرمي إلى إدخال طرف التبادل التواصلي في إطار الذات المكتملة، راجع: معجم تحليل الخطاب، ص ٩٤.

(٢) محمد الغساني، رحلة الوزير في افتكاك الأسير، ص ٦٩.

- المفاوضة خطابا تفاعليا في رحلة الغساني الأندلسي - دراسات أندلسية -

ويضيف الغساني قائلا: "فحين دخلنا عليه ربح وهش وبش ولم يقصر في الترحيب والإكرام، وسأل عن سيدنا المنصور بالله تعالى سؤالا كثيرا. وحين ذكره أزال شميره من على رأسه إجلالا وتكريما... وناولناه الكتاب السلطاني بعد تقبيله ووضع على الرأس" (١).

وثانيها موقف التهويل: وضمنه يتجاوز المفاوض تبني انفعالات الطرف الآخر، إلى محاولة تحفيزها وإثارتها، سواء بالخطوة الرفيعة والاستثنائية، أو بالاستدراج نحو مشاهد عجيبة ساحرة تتحول فيها مواطن الوصف خطط تفاوض صغرى. يقول الغساني: "كان الطاغية مدة مقامنا عنده، يحب تأيسنا ويريد جلب الخواطر منا بالأمر التي يعلم أنها عنده بمكانة، من رؤية منتزهاته ومصايد وبستانه وأعياده وسلاحه" (٢).

وهو لا يخفي وقوعه في هذا الموقف الاستهوائي، إذ في الديباجة يعلن على نحو ما تلفظ به أغلب الرحالة "ورأيت هنالك من العجب العجائب، ما يسحر العقول ويبهز الألباب. فجمعت بعض ذلك في هذه الرقاع لئلا تغدو عليه يد الضياع" (٣).

ويظل الاستهواء بالتهويل محققا لغايات المفاوضة البعيدة، لحظة ارتقاء سلوك المفاوض مرتبة الفعل الاستثنائي وتوجيهه نحو الطرف الآخر المتفاعل معه في قصيدة معلنه. يقول الغساني: "وجه إلينا يوما مع الكندي الموكل لنا، وقد أمره بإخراجنا إلى موضع الاصطياد والإذن في الصيد... وزعموا أن إذنه

(١) محمد الغساني، رحلة الوزير في افتكاك الأسير، ص ٧٠.

(٢) ن.م، ص ١٢٦.

(٣) ن.م، ص ٢٦.

- المفاوضة خطابا تفاعليا في رحلة الغساني الأندلسي - دراسات أندلسية -

لنا في ذلك خصوصية لم يسمح بها قبل لأحد، وذكروا أن أنباشادور الفرنسي^(١) طلب ذلك منه هو أنباشادور ألمانيا فلم يأذن لهما فيه"^(٢).

إن ما تختزله هذه الأشكال الاستهوائية من تقليد ومحاكاة وتحويل دليل آخر على أن الرحلة السفارية في انفتاحها على مفهوم المفاوضة إنما هي نص حافل بالمنوال اللعبي، والأوضاع الخطابية المنقلبة، فالغساني الرحالة في رهان الاستهواء، قد تنزل ضمن استراتيجيات المفاوضة في منزلة الأسير الضمني المضمر الواقع تحت سلطان تمثيلات الآخر، فهو يرتحل بين مدن إسبانيا وأقاليم الآخر ليسيج ذاكرته بمدش طبعيتها وعجيب معمارها وغريب تحولات الأشياء والمعالم فيها، فهذا مسجد قرطبة الذي كان في البدء موضعا ابتاعه عبد الرحمان الداخل (توفي ١٧٢ / ٧٨٨)، من نصارى الذمة، وحول الكنيسة فيه إلى ساحة مسجد، يحدث فيه شيء كمثل هذا زمن رحلة الغساني، فيتشوه معمار المسجد ويعود كنيسة "محرابه الإسلامي باق على حاله لم يتغير... إلا أنهم جعلوا عليه شبكا من نحاس وطرحوا أمامه صليبا"^(٣).

يفضي بنا كل ذلك إلى آخر درجات رهان الاستهواء وأشدّها وقعا على ذات المفاوض وتوجيها للخطاب التفاعلي نحو أوجه من الدلالة جديدة.

وثالثها هو موقف السجال: ونعني بهذا الموقف تلك اللحظة السجالية الحجاجية التي تفاعل فيها طرفا المفاوضة حول المخطوطات العربية. لقد كانت فصول الرحلة المخصصة لحركة الغساني في الأسكوريال محملة بلعبة تفاوضية هي أقرب إلى حيل الكلام، ومخاتلات السلوك. فقد أخذ المرافقون

(١) Ambassadeur

(٢) محمد الغساني، رحلة الوزير في افتكاك الأسير، ص ٨٧.

(٣) محمد الغساني، رحلة الوزير في افتكاك الأسير، ص ٤٦.

- المفاوضة خطابا تفاعليا في رحلة الغساني الأندلسي - دراسات أندلسية -

الإسبان الرحالة إلى تلك المكتبة، وجعلوه يكتشف بالعين والمعاينة آثار الحريق الذي التهم كل شيء فيها. وإلى هذه الخزانة كانوا نقلوا خزائن كتب المسلمين من قرطبة واشبيلية وغيرهما. وزعموا أنها أحرقت بالنار جميعا فيما قبل الآن من عشرة أعوام^(١)، غير أن هذا الموقف الحجاجي قد بدا ظاهرا بغير حجج دقيقة، إذ تبين فيما بعد، أن حوالي ثلاثة آلاف مخطوط كانت في أقبية الدير لم تمسسها النار، وقد أخفيت عن أنظار المفاوض لتكون بعد ذلك نواة مكتبة الأسكوريال، وهي الآن أكبر مكتبات العالم احتواء للمخطوطات الإسلامية النفسية.

إن رهان الاستهواء قد مكن الطرف الإسباني من إرغام المفاوض المغربي على الدخول في إطار تفكير هذا الطرف الأول، ويتجلى ذلك خاصة في الصعيد الثاني من الاستراتيجيات التفاوضية بعد الرهانات ونعني به الخطط.

٢- الخطط: هي خليط من المظاهر التفاوضية التي حددها نيرنبرغ^(٢) في بحوثه حول مفهوم

التفاوض، وقد وجدنا نص رحلة الغساني مستجيبا لأغلب مرتكزاتها:

أ- التسوية أو الصمت المؤقت: وهو ضرب من التفاعل يميل فيه المفاوض إلى بناء فكرة التأجيل، وتأسيس الحلول في الانتظارات والتدرج في طلب مبدأ تحقيق الممكن، لأنه واع بأن الطرف الآخر وإن حظي بالتواصل، فإنه لا يعدو أن يكون واهنا في أدائه التفاوضي غير قادر على مقاومة قابلية الاستهواء. يقول: "فحين قربنا من الباب لقينا الوكيل ومن معه من الأعيان والشلظاظ"^(٣) فسلم ورحب ودخل بنا الدار... إلى أن دخلنا قبة كبيرة لقينا بابها كاتب الديوان الكبير... ودخل بنا قبة أخرى لها باب، ومن هذه القبة وجدنا

(١) من م، ص ١٢٥.

(٢) Nierenberg Gerard, Fundamentals of negotiating, Hawthorn Books New York, 1973

(٣) الشلظاظ: هم الجند. نقلا عن، رحلة الوزير في افتكاك الأسير، ص ١٢٦.

- المفاوضة خطابا تفاعليا في رحلة الغساني الأندلسي - دراسات أندلسية -

الطاغية واقفا علي قدميه... وناولناه الكتاب المبارك السلطاني... ثم بدأ يستفهمنا عن أحوالنا في الطريق... وبعد أن مر بنا الكلام قال: الحمد لله على سلامتكم وسنعيد الكلام في ما أتيتم لأجله في وقت آخر"^(١).

ب- المفاجأة: ونعني بها سعي المفاوض المغربي إلى تغيير أساليب التحالف أو إبداء الحلول للحصول على قدر وفير من مآلات التسوية، وعندها يتم الجمع بين المطلبين الإنساني والثقافي في شكل مطلب واحد يقول في هذا الصدد: "وحيث كان المولى الإمام، أدامه الله وأيده، جعل لهم في كتابه الشريف فسحة: إن عدموا وجود الكتب أو تعذر حالها، أن يجعلوا عوضها كمال ألف أسير من المسلمين"^(٢)، وكأن مقاصد الخطاب ترنو إلى إنشاء خطة ضدّيدة، ترد على التسوية السابق، وما علق به من صمت مؤقت، يخبر عن لحظة اختبار خفية في سياق المفاوضة وما فيها من كرفر ضمنيّين.

ج- الانسحاب الهادئ: وهو اللحظة الغالقة لسيرورة التفاوض واستراتيجيات التحالف والأداء الكلامي والتفاعلي، ففي لحظة الاسترخاء التفاوضي ينسحب المفاوض وكأنه أقرب إلى التنازل عن كل شيء، لأن شعوره بالثقة والتعاون قد أصابه الفتور والملال. يقول الغساني: "وانصرفنا من عنده، بعد أن شيعنا، ودفع لنا الكتاب الذي كتبه لمقام سيدنا المنصور بالله، وبعد ذلك ألحقنا بعض خواصه يستفهمنا هل لنا غرض بالمقام بذلك المنتزه أياما بقصد الاصطياد والتنزه. فأجبنا بتطايير قلوبنا إلى وطننا"^(٣).

الخاتمة:

إن قراءتنا لرحلة الغساني السفارية من جهة مفهوم المفاوضة ووجوه الخطاب التفاعلي المائل فيها بين الأنا والآخر، ليست مجرد اكتفاء بعمل إجرائي لنظرية الألعاب وسنن تحليل الخطاب، وإنما هي قراءة تحاول الإنصات للسياسي فينا عبر الأدبي، وللعائب عنا لإدراك الشاهد بيننا، فمثلما اكتشف المفاوض المغربي في رحلته، أن عوالم الآخر تضعه أمام دولة أسوارها حول حدودها الخارجية فحسب، فليس ثمة

(١) محمد الغساني، رحلة الوزير في افتكاك الأسير، ص ٦٩، ٧٠.

(٢) محمد الغساني، رحلة الوزير في افتكاك الأسير، ص ٨٤.

(٣) ن.م، ص ١٣٢.

- المفاوضة خطابا تفاعليا في رحلة الغساني الأندلسي - دراسات أندلسية -

من أسبيجة تحاصر الداخل، ولا تجعله يكتشف مؤسسات تنمو في فضاء واقع لا حلم وعمران لا طلل، اكتشفنا أننا أمام رحلة غامضة النتائج مؤجلة المصائر، تقرر بأن المفاوضة لدينا هي لعبة تؤرخ لمازقنا وارتداداتنا ووقوعنا في الأسر الثقافي ولا غرابة أن يشكك المستشرق كراتشكوفسكي (توفي ١٣٧١/ ١٩٥١)^(١) في هدي الرحلة الواقعة تحت الدرس، فهي عنده ليست غير محاولة من الوزير عقد صلح بين السلطان المغربي والعرش الإسباني، أما الأسرى والمخطوطات، فإنها لا تعدو أن تكون واجهة للخداع والإيهام بالشرعية، لأجل تطبيع، هو أشبه بما تفضي إليه مفاوضاتنا

(١) أغناطيوس كراتشكوفسكي، تاريخ الأدب الجغرافي العربي، ترجمة: صلاح عثمان هاشم، القاهرة، الطبعة ١، ١٦٩١.